يريد أن يفهمنا، عليه أن يفهم أننا نفكر) وبالتالي كان نهجه، عموماً، اجتهادياً وليس حفظياً، بما جعله مهيأً للاختلاف مع أقرب حلفائه سواء على الصعيد الوطني أو القومي أو العالمي، بل للبعد العملياتي للجبهة في الوطن المحتل أيضاً، فهي معمعان من محاولات البناء والنشاط والضربات. فالاحتلال بالمرصاد، ولا يترك الكثير من ترف الابتعاد عن هموم العمل اليومي وتفاصيله، فوقع الملاحقات والمهام أكبر أثراً، وإن كانت منسجمة مع كلمات لينين (عليكم أن تتكيفوا مع ظروفكم وأوضاعكم الخاصة). وهذا جعل التماهي عاليا بين جزئيات نظرية وجزئيات عملية فتحقق تعبير المفكر الفرنسي التوسير (نظرية الممارسة).

لا مهرب في ظروف القمع والبطش من السرية، مثلما أن اختلال ميزان القوى يوجب على الحركة الثورية اللجوء للسرية أيضاً. فالسرية وسيلة لحماية وضمان الوجود والنشاط، وتغدو نافلة وغير ضرورية، حينما تتأمن شروط الوجود والنشاط دونها.

والجماعات السرية قديمة وقد امتدت في أنحاء كثيرة من العالم، إلى درجة أن بعض التحليلات السيكولوجية ذهبت للقول (إن السرية حاجة إنسانية أساسية، وهي تثير انفعالات قوية... إن الولوع بالسرية شيء كامن في النفس البشرية... والجماعة السرية قد تكون حالة من التمرد على النظام القائم... ولكن ما الذي يجذب الإنسان للانضمام لجماعة سرية؟ ليس مجرد حب صبياني لبعض الطقوس، أو إسناد الجماعة لبعضها البعض، بل هي أيضاً حاجة إنسانية فتضطلع الجماعة السرية بدور في المجتمع... ويذهب عالم النفس غوستاف يونغ للقول: إن السرية عملية تربوية تعطي لكيان الفرد مكانة ليشعر أنه ينبعث من جديد.

ودون سرية قد يدمر الأعداء الجماعة أو تعجز عن القيام بدورها أو الحفاظ على أعضائها) [١٧١] أما عالم الاجتماع الألماني سيميل فكتب (إن السرية تمنح إمكانية عالم ثانٍ إلى جانب العالم العلني، وتوفر فضاءً إضافياً في الحياة... وأن السر يمنح صاحبه شعوراً بالملكية الخاصة والتمايز) [١٧٢] بل وباعتراف الآخرين بدوره بما يشبه إعادة اعتبار للذات والذاتية وبقدرتهما على الفعل والتأثير، علاوة على شعور التطامن النفسي الناتج عن الترابط الجماعي والحمائي، وأكثر من ذلك فهو يرفع من فاعلية عضو الجماعة بما يناط به من أعمال ومهام، والفاعلية مسألة جوهرية في المجتمع المعاصر.

---

١٧١) د. ماكينزي، نورمان. الجمعيات السرية، مجموعة مؤلفين. دار الشروق ١٩٩٩، ص ١٠، ١٥، ١٧، ٢٤

١٧٢) المرجع السابق، ص٢٨٧